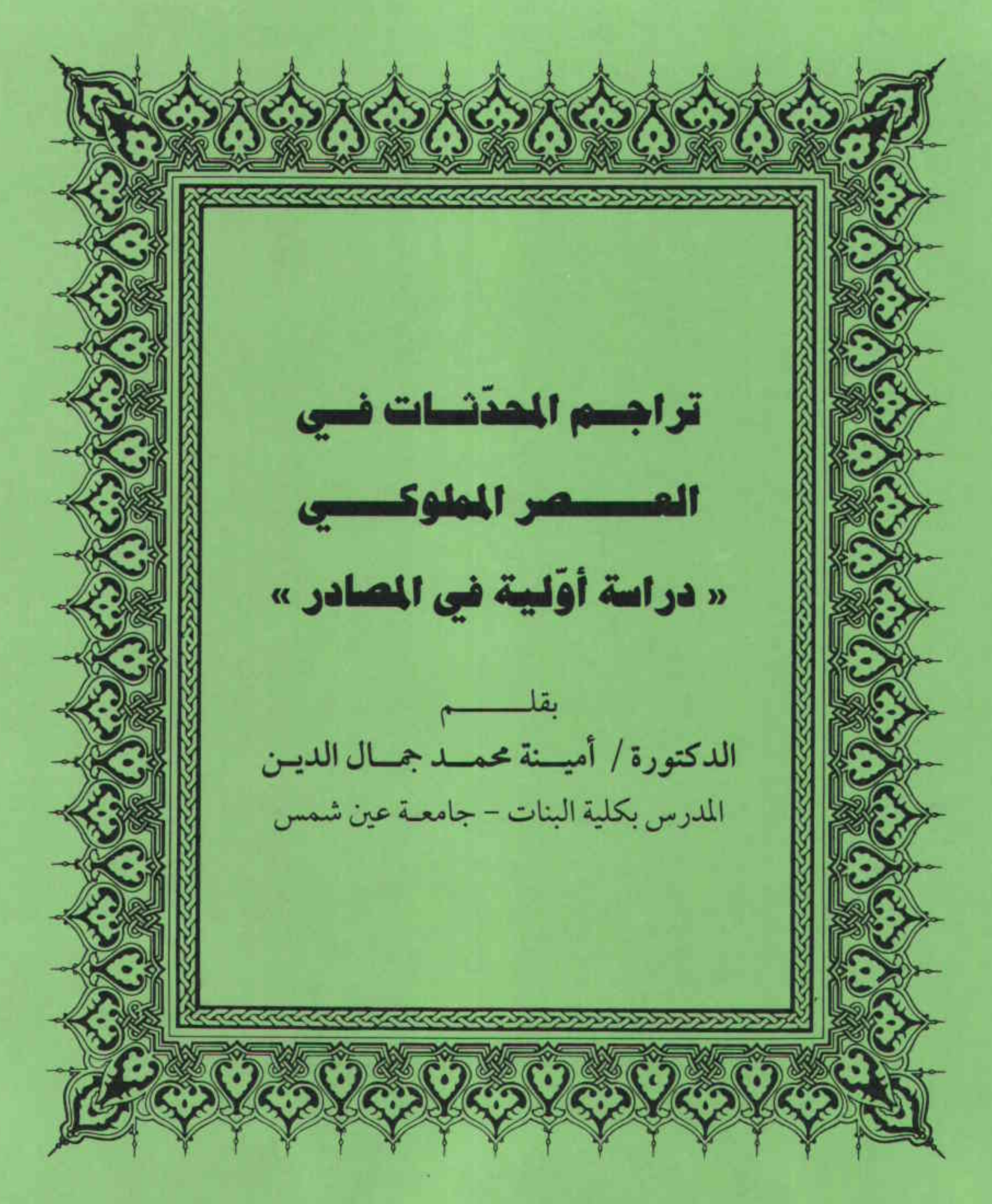


تراجم المحدّثات في العصر المملوكي

« دراسة أوّلية في المصادر »

بقلم

الدكتورة / أمينة محمد جمال الدين

المدرس بكلية البنات - جامعة عين شمس

-٤٦٧-

عكفت بضع سنين على دراسة موضوع من موضوعات الأدب العربي في العصر المملوكي، كان عنوانه «النويرى وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب»، وقد تناولت الدراسة فيما تناولت الحياة العلمية والأدبية الزاهرة التي عاشها ذلك الأديب الكبير (ولد سنة ٦٦٧هـ وتوفي سنة ٧٣٣هـ) الذي استطاع - برغم اشتغاله بالأمور الديوانية ومباشرة الأعمال الإدارية في كل من مصر والشام - أن يخرج لنا موسوعته الضخمة، التي اشتملت على أكثر من ثلاثين جزءاً ضمّت كل فروع العلم والمعرفة التي ينبغي على الأديب أن يلمّ بها، بل ويتقنها قبل أن يتعانى الأدب.

ولقد بدا النويرى في كثير من الموضوعات التي تطرق اليها في موسوعته متأثراً أوضح التأثر وأعمقه بمناهج علم الحديث الشريف.(١) ومن خلال استقرائي لسيرة النويرى- التي لا نعرف عنها إلا مقتطفات يسيرة كتب بعضها بنفسه في مواضع متفرقة من كتابه، وذكر بعضها الآخر معاصروه - نجد أن النويرى قد بدأ العناية بعلم الحديث منذ فترة مبكرة من حياته. واستمرت هذه العناية وتواصلت برغم انشغاله بالوظائف الديوانية، فكان يحضر مجالس السماع التي كان يعقدها كبار الحفاظ في عصره، كالشيخ شرف الدين الدمياطي (توفي سنة ٧٠٥هـ) وابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ).

ولقد راعني أن من بين شيوخ النويرى في علم الحديث الشريف واحدة من المحدّثات هي: الشيخة أم محمد وزيرة، المعروفة بست الوزراء (٦٢٤ - ٧١٦هـ) التي يقول عنها إنها «روت صحيح البخاري عن ابن الزبيرى، وسمعتُه عليها بالقاهرة سنة خمس عشرة وسبعمائة».(٢) وقد بذلت الشيخة جهداً موفوراً في رواية صحيح البخاري في السنة المذكورة (٧١٥) حيث سمع الناس عليها وعلى الشيخ (على الحجار) «بقلعة الجبل والقاهرة وظاهرها ومصر خمس مرّات... الخ»(٣)، مما يدل على نشاط موفور، وهمة عالية بذلتها ست الوزراء في تعليم الحديث الشريف، وينبّه إلى أن المرأة قد اقتحمت مجالاً طالما

(١) راجع كتاب «النويرى وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية»، لكاتبة هذه السطور، طبع مصر ١٩٨٤م، دار ثابت للنشر، ص ٨٤ وما بعدها.

(٢) النويرى: شهاب الدين، نهاية الأرب، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم (٥٤٩) معارف عامة، جزء ٣٠، ورقة (١٠٠).

(٣) أيضـــاً.

حسبتُ أنه كان مقصوراً على الرجال وحدهم، لا سيما في ذلك العصر الذي عدّه مؤرخو الثقافة العربية عصر اضطراب سياسي وتخلّف ثقافي، قد انسحبت المرأة فيه من الحياة العامة للأمة، ولم يعد لها ذلك الدور العلمي والثقافي الذي قامت به منذ صدر الإسلام.

كما راعني أن أجد شخصية أخرى من كبار شخصيات ذلك العصر الزاخر بالعلماء الأفذاذ، وهو قاضي القضاة تاج الدين عبدالوهاب بن على السبكي (ت ٧٧١) ينقل خبرين في كتابه الرائع: «معيد النّعم ومبيد النّقم» عن ثلاث من محدّثات عصره، يقول في الخبر الأول منهما في معرض التنديد بالعلماء الذين يترددون إلى أبواب السلاطين:

«وكتب إليّ أحمد بن على الحنبلي وزينب بنت الكمال وفاطمة بنت أبي عمر عن ... قال: أنشدنا القاضي أبو الحسن على بن عبدالعزيز الجرجاني لنفسه:

يَقُولونَ لي: فيكَ انقباضٌ، وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذلِّ أَحْجَما
أَرى الناسَ من دَاناهُمُ هانَ عندَهمُ ... ومَن أَكرمَتْهُ عِزّةُ النَّفسِ أُكرِما
ومَا كُلُّ برق لاح لِي يَستَفزُّني ... ولا كُلّ من لاقيتُ أَرضاهُ مُنعما

... الأبيات». [1]

كما ينقل - في نفس الفصل - خبراً بالسماع عن محدّثة معاصرة أخرى، فيقول: «أخبرتنا شقراء بنت يعقوب بن إسماعيل بن عبدالله بن عمر بن قاضي اليمن قراءة عليها وأنا أسمع قالت: أخبرنا ... يقول: سمعت عبدالله بن المبارك يقول وقد بلغه عن أبي عليّة -رحمهما الله- أنه قد ولي الصدقات بالبصرة، فكتب إليه بهذه الأبيات:

ياجاعلَ العلمِ لَه بَازياً ... يَصْطادُ أموالَ المساكينِ
احتَلْتَ للدُّنْيَا ولذاتِها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدّينِ

... الأبيات.

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار وآخرين، مصر، ١٩٤٨م ص ٦٩ - ٧٠، وقد أورد السبكى هذا الخبر كله بنفس النصّ في كتابه: طبقات الشافعية الكبرى، مصر، ١٣٢٤هـ، ٢: ٣٠٨. وزينب بنت الكمال (ت ٧٤٠) وفاطمة بنت أبي بكر (ت ٧٤٧) من أشهر محدثات العصر، انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (نشر حسام المقدسي، سنة ١٣٥٠) ٦: ١٢٦، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (طبعة دار المعارف العثمانية) ٣: ٢٥.

فلما بلغت هذه الأبيات ابن عليَّة بكى واستعفى، وأنشأ يقول :

أُفٌّ لدُنْيــا أَبَــتْ تُواتينـــي   إلا بنقــصِ عُــرَى دينـــي

... الخ .[٢]

وواضح أن هذين الخبرين المتفرقين اللذين نقلهما السبكي عن بعض محدثات عصره إنما هما - في حقيقة الأمر - رواية أدبية موثقّة أفضل ما يكون التوثيق، الأمر الذي يدل على أن صلة المحدّثات بـالأدب لم تكن مقصورة على توجيه أدباء العصر وتلقينهـم حديث رسول الله (ﷺ) ويـا لها مـن مهمة جليلـة في ذاتها، وإنما اتسعـت هـذه الصلة حتـى شملـت فيما شملت عنـايتهن بـالأدب نفسه، وبتـوثيقه. وربما أدى بنـا التعمق في بحـث الظاهـرة إلى الوقوف على أنماط أخرى من العلاقات بين هؤلاء المحدّثات والأدب في العصر المملوكي.

وقد دفعني ذلك كله إلى دراسة ظاهرة كثرة المحدّثات وتبيّـن أثرهن في الحياة الأدبية في ذلك العصر. ولم أكـن أقصد - بـالطبع - أن أتطرق إلى التفـاصيل الـدقيقة المتعلقـة بعلم الحديث الشريـف، وماأضافته هـؤلاء المحدّثات إلى جهـود السابقين، فذلك مـالا أطيقه ومالسـت مؤهلة لـه بالقدر الكـافي، ولاسبيل لي إليه، وإنما هـو إلى المتخصصين في العلم الشريف، وحسبي أن أدرس الخطوط الكبرى للظاهرة بمنهج علميّ موّثق، وأبّين دلالتها الحضارية، ومغزاها الثقافي، وأثرها من بعد ذلك كله على أدب العصر.

وكان لابـد أولا من فحـص المصادر التي تعين البـاحث على التعـرف على أعمال هؤلاء المحدّثـات، والدور الذي قمن بـه في نشر العلم والمعرفـة، وما كان لهذا الدور مـن أثر في الحياة الأدبية في ذلك العصر، لما هو ثـابت مقرر من تأثر الأدب بثقافة الـزمن الذي يعيش فيه، ولما هـو واضح من صلة هـؤلاء المحدّثات بـأدباء العصر واهتمامهن بروايـة الأشعار وتوثيقها كما أسلفنا.

(٢) معيد النعم، ص ٧٢ - ٧٣. وابن عليّة كان من كبار علماء البصرة، توفي سنة ١٨١هـ.

* القرن السابع واتساع نشاط المحدّثات :

وإن نظرة فاحصة في كتب التاريخ العام التي عنيت بوفيات الأعلام بقدر ما عنيت بالأحداث -ككتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (المتوفي سنة ٨٧٤) والبداية والنهاية لابن كثير (المتوفي سنة ٧٧٤)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (المتوفي سنة ١٠٨٩) - لكفيلة بأن تبين أن القرن السابع - وهو القرن الذي علا منذ منتصفه نجم المماليك في مصر والشام بعد أن استقر الحكم للسلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٨هـ - قد شهد بداية حركة نشاط واسعة ومتزايدة للنساء من المحدّثات في كل من مصر والشام. ولاريب أن الحركة إنما كانت صدى للازدهار الذي شهدته تلك الديار في سائر العلوم والمعارف والفنون في تلك الحقبة.

وإذا نحن أحصينا ما أورده ابن العماد من تراجم المحدّثات في القرن السابع، نجدها قد بلغت إحدى وعشرين ترجمة لمحدّثات مارس أغلبهن نشاطه في الديار المصرية والشامية، وأخذ العدد في التزايد باطراد، فبلغ - عند ابن العماد مثلاً - نحو سبع وثلاثين محدّثة في القرن الثامن.

على أن كتب التاريخ العام - التي لاتُعنى إلا بالملامح العامة للصورة الحضارية للعصر - قد أشارت ضمنا إلى هذا العدد الكبير من المحدّثات، فلابد إذن أن تكون بالمكتبات مصادر متخصصة تتوسع في الإشارة إلى الظاهرة وتتعمق تفاصيلها، لاسيما بعد أن لاحظت أن كتب الوفيات وطبقات المحدثين لاتكاد تضيف شيئاً يذكر على ماورد بكتب التاريخ العام فيما يتعلق بتراجم النساء خاصة.

ويختص هذا المقال بالبحث في تلك المصادر، وتتبّع المظانّ التي يمكن من خلالها - بعد ذلك- التعمق في درس الظّاهرة. وتعدّ هذه الخطوة مقدمة أولية لا محيد عنها للوصول إلى نتائج يُطمأن إلى صحّتها. لاسيما أن بحث هذه الظاهرة لم يُسبق إليه في حدود علمنا. نعم، قد نجد مادّته الغُفْل في الكثير من المصادر العامة وكتب الوفيات، كما أشرنا، لكن إخراج هذه المادة من حالة السرّد والإرسال التي تغلب على تلك المصادر العامة والعمل

على ربطها بالحركة العلمية والثقافية للعصر يستوجب الرجوع إلى فهارس المكتبات والفحص عن مصادر أشد دقة وأكثر شمولاً، كما يستوجب الموازنة بين ما وقفنا عليه من مصادر، لإدراك ما يتميز به بعضها على بعض في التفاصيل التي قد تعنى بأنماط من النشاط تصلح أن تكون مؤشّراً إيجابياً يعين الباحث على تكوين صورة شاملة للقضية موضوع البحث.

وعندي أنه يلزم من يبحث في تراجم طبقات المحدثين - لتبين أثرهم في الحياة العلمية والأدبية في عصر من العصور - أن يختار مصادر بحثه بعناية فائقة لكي يستوثق من صحة ماجاء بالتراجم ويتأكد من دقتها، فهذا الالتزام أمر يكافيء منهج الشيوخ والشيخات في رعايتهم لأقصى درجات الدقة والتحرى للسّند، وحرصهم على ألا يرقى إلى منابعهم أدنى شك أو أقل جرح.

ومن ثم أصبح من حق المحدّثات علينا - وقد شمّرنا عن ساعد الجدّ للكشف عن دورهن في الحياة الأدبية والثقافية في ذلك العصر - أن نتوّقف مليّا عند المصادر، لنختار ما كان منها أكثر دقة وأكمل استيعاباً.

* * *

* ابن حجر العسقلاني وعنايته بأخبار النساء:

وبالبحث في فهارس المكتبات وقفت على مخطوط بدار الكتب المصرية ألفه ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢) بعنوان: «معجم الشيخة مريم»[١]، ويعني بها شيخته «مريم بنت أحمد بن إبراهيم الأذرعي الدمشقية».[٢] وفي هذا المعجم - يتكون من ثلاثة عشر جزءاً في مجلد واحد، والذي سوّده ابن حجر بنفسه - عرض لشيوخ مريم في السماع والإجازة، وهم كثيرون للغاية، ذكر من بينهن إحدى وعشرين شيخة، دفعة واحدة، كنّ

(١) مخطوط مصور بطريقة الميكروفيلم، برقم ١٤٢١ حديث.

(٢) ولدت سنة ٧١٩، وتوفيت سنة ٨٠٢، وفي إشارة لها في كتابه «الدرر الكامنة» (١ : ٢٤٠) قال ابن حجر: «سمعت منها الكثير»، ونقل عنه السخاوي في الضوء اللامع (١٢ : ١٢٤) قوله: «خرّجت لها معجماً في مجلد».

يعشن في وقت واحد تقريباً، سمعت[١] منهن «مريم» وأجزن لها أن تروى الحديث أو الخبر[٢] عنهن.

ولقد لفتني ذلك المعجم إلى خصيصة تميز بها عدد كبير من مؤلفات ابن حجر العسقلاني، وهي عناية ابن حجر بتراجم النساء، وبالدور الذي مارسنه إلى جانب الرجال في العصر الذي يؤرخ للنشاط البشري فيه.

وتبدو هذه العناية بدرجة كافية في أبرز مؤلفات ابن حجر وأكثرها شهرة وتداولاً، فلقد خصّ تراجم النساء بجزء من الأجزاء الأربعة التي تشتمل عليها موسوعته الكبرى «الإصابة في تمييز الصحابة»، وأورد في هذا الجزء (الجزء الرابع من الموسوعة)[٣] تراجم النساء من الصحابيات الجليلات، وهي تراجم لاتقلّ في دقتها وتفصيلها عن تراجم الصحابة أنفسهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وفي كتابه «تقريب التهذيب»[٤] عرض ابن حجر لأكثر من ثلاثمائة من النسوة المحدّثات في عصر الصحابة والتابعين ومن تبعهنّ من رواة الكتب السِّتَّة، فكان بذلك من أكثر المؤلفين عناية بالدور الكبير الذي قامت به النساء في الحركة العلمية والثقافية في صدر الإسلام.

ولست أزعم أن ابن حجر كان أول من أفرد في مؤلفاته قسماً خاصاً للصحابيات، بل هو يّتبع في ذلك تقليداً كان قد استقّر في فن التراجم منذ القرن الثالث، بعد أن ألف ابن سعد كاتب الواقدى (ت ٢٣٠هـ) كتابه الكبير: الطبقات الكبرى، وذيّله بجزء خاص للنساء.[٥] وما لبث كبار المؤلفين في تراجم الصحابة أن اعتمدوا هذا المنهج وساروا

---

(١) السماع عند المحدثين هو «أن يحدّث الراوى بحديث أو خبر، سواء كان ذلك التحديث شفاهاً من المصدر أو قراءة من كتاب». (الخطيب البغدادى، الكفاية في علم الرواية، طبع مصر، ١٩٧٢م، ص ٤٥٠).

(٢) أما الإجازة فهي «إذن من الأستاذ لتلميذه أن يروى عنه مروياته أو مسموعاته أو بعضاً منها». (السيوطي، تدريب الراوى شرح تقريب النووي، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، طبع مصر، ١٩٥٩م، ص ٢٥٦).

(٣) راجع طبعة مكتبة المتنبي ببغداد، ١٣٢٨هـ.

(٤) انظر: تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوّامة، نشر دار الرشيد بحلب، ١٤٠٦هـ.

(٥) هو الجزء الثامن من طبعة مطبعة بريل «ليدن» بهولندا، سنة ١٣٢١هـ، بتحقيق كارل بروكلمان.

عليه، وقد بدا هذا واضحاً في أمّهات الكتب التي أُلفت في هذا الباب ككتاب «الاستيعاب» لابن عبدالبرّ القرطبي (ت ٤٦٣هـ) [١]، وكتاب «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة» لعز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ). [٢]

ولا شك أن ما درج عليه ابن حجر من عناية بأخبار النساء - استجابة لذلك التقليد الراسخ في فن التراجم - قد جعله يلاحظ ظاهرة بدت واضحة للعيان في عصره وقبل عصره بقليل، ونعني بها ظاهرة كثرة المحدّثات في الشام ومصر خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، ويحرص على تسجيلها بكل دقة ووضوح، من خلال تراجم النساء التي أثبتها في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وفي معجمه المشار إليه، والذي خصصه لجمع تراجم شيوخ أستاذته مريم الأذرعية وشيخاتها.

---

(١) انظر : الاستيعاب لمعرفة الصحاب، تحقيق محمد علي البجاوي، طبع مصر، ٤ : ١٧٧٨ وما بعدها.

(٢) انظر : أسد الغابة، طبع مصر، ١٩٧٠م، الجزء السابع.

* الدرر الكامنة : منهجه ومميزاته :

يعدّ من أهم المصادر التي بين أيدينا - إن لم تكن أهمها على الإطلاق - في التعريف بمحدّثات القرن الثامن، وفي الإشارة ضمنا إلى محدّثات القرن السابع .

ولذلك كان يجدر بنا أن نتوقف مليّا عند هذا المصدر النّادر ، والبحر الزّاخر لاستخراج أهم الملامح التي تميّزت بها بعض درره الكامنة من النساء، والتأمل في منهجه في إجلاء سيرهن ومناقبهن، والموازنة بينه وبين ما هو متاح الآن من مصادر عربية عنيت بالموضوع نفسه .

وينبغي علينا بادىء ذى بدء أن نشير إلى أن كتاب الدرر الكامنة لا يشتمل على قسم خاص بتراجم النساء، وإنما تأتي هذه التراجم جنباً إلى جنب تراجم الرجال . وقد رُتبت التراجم كلها على حروف المعجم، وشملت تراجم عدد كبير من النساء اشتغل أكثرهن بعلم الحديث ،بينما عني بعضهن بالفقه، وسلك البعض الآخر طريق التصوف والعرفان، كما شملت تراجم متفرقة لنساء تعانين الأدب أو احترفن الغناء، أوتزوّجن سلاطين المماليك وقادتهم .

ولذلك فإنه عندما شرعت دائرة المعارف الإسلا مية في «حيدر آباد الدكن» في تحقيق كتاب «الدرر الكامنة» بأجزائه الأربعة تمهيداً لطبعه ونشره، تنبّه المحققون إلى أن من أهمّ ميزات الكتاب، أنّه «قد أتى فيه بتراجم كثيرة للنّساء العالمات الفاضلات المحدّثات، وذكر اشتغالهن بالتدريس وحبّهن لعلوم الفقه والحديث، وشغفهن بالتأليف والتصنيف، حتي صار هذا الكتاب عمدة في أحوال نساء هذا القرن» . [(1)]

ولو أننا عمدنا إلى الموازنة السريعة بين الطريقة التي كتب بها ابن حجر تراجم النساء في الدرر الكامنة وطرائق غيره من كبار كُتّاب التراجم والوفيات، ممن عاشوا في العصر المملوكي وسبقوا ابن حجر في التأليف في هذا الفن، كالقاضي ابن خلكان (ت ٦٨١) في

---

(١) الدرر الكامنة ، ٤ : ٥٠٣ .

«وفيات الأعيان»[1]، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤) في «فوات الوفيات»[2]، والإدفوى (ت ٧٤٨) في «الطالع السعيد»[3]، لوجدنا ابن حجر يرجح هؤلاء جميعاً في العناية بتراجم النساء بعامّة والمحدّثات بخاصة، وتقصيّ أخبارهن والتعريف بأحوالهن، وبيان أسماء شيوخهن، وما تلقينه على هؤلاء الشيوخ من أبواب العلم الشريف، وما اختصت بعضهن بروايته، وأبرز من تتلمذ على أيديهن من الرجال والنساء الأعلام، والمناقب التي تحلّت بها هؤلاء الشّيخات المحدّثات.

وكان من الواضح في إثبات ابن حجر لتراجم نساء المائة الثامنة في كتابه الدرر الكامنة أنه إنما ينتهج نهجاً لا يسير فيه على نهج مؤلفي كتب التواريخ، التي تعتمد في الغالب الأعم على تذييل تواريخ السّنين بنبذ تتضمن ترجمة مختصرة لوفيات الأعلام في كل سنة، على غرار ما فعل ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤) في «النجوم الزاهرة»[4]، ولا يتقيد فيه بطريقة كُتّاب الطبقات التي لا تعنى إلا بالمشاهير، ولا يهمها من أخبارهم إلا تحديد تواريخ ميلادهم ووفياتهم. ولعل أظهر مثال لأصحاب هذه الطريقة «الحافظ شمس الدين الذهبي» في كتابه «تذكرة الحفاظ». [5]

وإنما سلك ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة» مسلكاً مختلفاً حين أبدى من جانبه حرصاً على إيراد تراجم النساء وأخبارهن في القرن الثامن، وبذل كل طاقته لجمع ما تفرق من هذه الأخبار.

---

(١) شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.

(٢) صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي الدمشقي، فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مصر، ١٩٥١م.

(٣) كمال الدين جعفر بن ثعلب الإدفوى، تحقيق سعد محمد حسن، مصر، ١٩٦٦م.

(٤) يترجم ابن تغرى بردى لواحدة من كبار المحدّثات في النجوم الزاهرة، في حوادث سنة ٧٢٣هـ فيقول: «وتوفيت المسندة المعمرة أم محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شكر، في ذي الحجة بالقدس عن أربع وتسعين سنة، وكانت رُحْلَةَ زمانها، رُحل إليها من الأقطار، وصارت مسندة عصرها» (النجوم الزاهرة، ٩: ٢٥٨).

(٥) يذكر الذهبي أخبار واحدة من كبار المحدّثات في عصرها على هذا النحو: «قلت وفيها (يعني في سنة ٥٧٥هـ) توفي ... ومسندة بغداد أم عتب تجني الوهبانية» (تذكرة الحفاظ ٤: ١٣٦٦). وفي وفيات سنة ٧٠٨هـ يقول: «وفيها توفي... والمعمرة المسندة أم عبدالله فاطمة بنت سليمان بن عبدالكريم الأنصاري المقرى بدمشق وقد أشرفت على التسعين ... وأم عمر خديجة بنت أحمد ابن أبي جرادة بحماة عن بضع وثمانين سنة». (تذكرة الحفاظ، ٤: ١٤٨٥). والعجيب أن ابن حجر العسقلاني نفسه سار على طريقة كتّاب الوفيات في كتابه في التاريخ «إنباء الغمر بأبناء العمر». راجع: طبعة دار المعارف العثمانية تصوير دار الكتب العلمية ببيروت.

* منهـج متميّز في تراجـم المحـدثات :

ولكن كيـف كتب ابـن حجر تـراجم النساء في «الـدرر الكامنـة»؟ لنتأمـل الآن بعض الأمثلة لنقـف على المنهج الـذي سلكه ابن حجـر في جمع أكبر قدر مـن أخبار المحـدّثات، يقول مثـلاً: «حبيبة بنـت الزيـن عبدالرحمن بـن أبي بكر محمـد بن إبـراهيم، ولـدت سنة ٥٤هـ، حضرت على اليلداني، وخطيب مردا، وأُسمعت مـن إبراهيم بن خليل وأحمد بن عبدالدائم، وأجاز لها السبـط وفضل الله ابن الجيلي في آخرين من بغـداد. وحدّثت بالكثير خصوصـاً بالإجازة. قـال الذهبي: سمعـت منها، ومـاتت في شعبان سنـة ٧٣٣هـ، ولم تتزوج». [1]

فهو يورد الاسم كاملاً، ثم يتبعه بتاريخ الميلاد، ثم يبين ما حظيت به الشيخة من إعداد توجيهي أوّلي في علم الحديث، ومن حضرت عليه في صغـرها من المحدّثين. ويدلف بعد ذلك إلى المرحلة التـالية - مرحلة التكوين العلمـي- فيذكر مشايخها بالسماع، ثـم مشايخها بالإجازة. وينتقل بعد ذلـك إلى بيان فعّالياتها، فيذكر ما كان لها مـن نشاط في خدمة العلم الشريف، وهل كان أغلب نشاطها تعليماً مباشراً بالسماع أو إجازة بالمكاتبة.

ويعرّف بعـد ذلك بـأهم تلاميـذها، والمصـدر الذي اعتمد عليـه في استقاء أخبـارها. ويحدّد وفاتها بكـل دقة. وهو يستدرك - قبـل أن يفرغ من الترجمة - فيـأتي على خبر يتعلق بحياتها الخاصة.

ولقد كان هذا دأب ابن حجر العسقلاني في تراجم الرجال في الكتاب نفسه، غير أن من الواضح أنـه كان يفتقر في تراجم النسـاء إلى كثير من الأخبار الرئيسيـة التي لاتقوم الترجمة إلابها، فلا يعثر أحيانـاً على تاريخ مولد المحدّثة أو تـاريخ وفاتها، أو لايعثر على التاريخين معا، فيترك مكانهما بياضاً، ويكتفي بذكر مااستطاع جمعه من الأخبار، على أمل أن تسعفه بعض المصادر بـاستيفاء هذا النقص قبل إتمام تـأليف الكتاب. وتظل هذه المواضـع ناقصة بعد إتمام التأليف، لكن المؤلف لايعمد إلى محو ماأثبته من أخبار تلك المحدّثة.

---

(٢) الـدرر الكامـنة، ٢ : ٥.

والأمثلة على ذلـك كثيرة، منها مثلا : «عـائشة بنت عبدالله بـن عبدالمؤمن بـن أبي فتح الصورى، ولـدت سنة... وأسمعت على خطيب مـردا، وحدثت، ومـاتت...» [١]، «جويرية بنت عبداللطيف عبدالغني ابن تيمية، تكنى أم خلف زين النساء، زوج أبي بكر الرحبي، ذكرها أبـو بكر الكويك في مشيخته». [٢] «عائشة بنت إسماعيـل... سمعت من الحجار، وسمع منها البرهان الحلبي المحدث في رحلته». [٣]

وكأني بـابن حجر وهو يـريد أن يؤرّخ لظـاهرة كثرة المحدّثـات في عصره وقبل عصره بقليل، يكتفي - أحياناً - بأقل القليل من الأخبار لكي يبين أن محدّثة ما كانت هناك.

ولذلك وردت في الـدرر الكامنة، وكذلك معجـم مريم، أسماء لمحدّثـات لم نجدها في غيره من كتب التراجم أو حتي كتب طبقات المحدّثين نفسها. وفي الوقت نفسه لم نجد عند غيره أسماء أخرى لمحدّثات وقعت وفاتهن في القرن الثامن إلا في حالات قليلة نادرة. [٤]

---

(١) تكرر هذا النموذج في تراجم النساء، راجع مثلاً، ١ : ٤١٢، ٢ : ٣٦، ٣ : ٢٢٨، ٤ : ٣٩، لكنه قلما ورد في تراجم الرجال. انظر مثلاً : ١ : ٣٢٩.

(٢) الدر الكامنة ١ : ٥٤٥.

(٣) أيضـــاً، ٢ : ٢٣٦.

(٤) أورد ابن الكيال : أبو بكر محمد بن أحمد (ت ٩٣٩) في كتابه : الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة والثقات، اسم محدّثة لم ترد عند ابن حجر، مارست نشـاطها بالقاهرة وتوفيت سنة ٧٨٥هـ، (انظر الكتاب المذكور ص ٤٤٩، نشر جـامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ، تحقيق عبدالقيوم عبد ربي النبي). وانظر مايلي من المقارنة بين الدرر الكامنة وكتاب الوفيات لتقي الدين ابن رافع.

* تراجم النساء وأنواعها في الدرر الكامنة :

بيد أن تراجم النساء في الدرر الكامنة لم تقتصر على من اشتغل منهن بالتحديث والرواية فحسب، بل اشتملت على تراجم لنساء بلغن في تعلمّ الحديث درجة عالية، وسمعن أو حصلن على إجازات عالية من كبار مشايخ العصر، لكنهن لم يجلسن مجلس المحدّث، ولم يعلّمن الحديث أو يروينه. (ولقد تجاهلت في دراستي هذا النوع من النساء اللاتي لم ينص ابن حجر -أوغيره - على أنهن اشتغلن بالتحديث والرواية، وماذلك إلا لأن هذا البحث إنما يتعلق بالمحدّثات اللاتي روين الحديث وعلّمنه وشاركن بنصيب في الحياة العلمية والفكرية في العصر المملوكي، وماكان لذلك من أثر في أدب ذلك العصر).

ويمكننا أن نصنف ماأورده ابن حجر من أخبار هؤلاء «المحدّثات» في الدرر الكامنة إلى صنفين: -

أولا: التراجم: أي أنه يفرد ترجمة خاصة للمحدّثة يعرض من خلالها كل ما وصله من أخبارها، وهو ينتهج في هذه التراجم نهجه في تراجم الرجال، فتأتي مرتبة وفق حروف المعجم.

ثانياً: الإشارات العابرة: وترد هذه الإشارات ضمن التراجم الأخرى للرجال أوالنساء على السواء، وأغلب هذه الإشارات لا تعدو أن تكون مجرد ذكر لاسم المحدّثة باعتبارها شيخة من شيوخ صاحب الترجمة، سمع منها أو أجازت له. وتنقسم هذه الأسماء بدورها إلى قسمين:

١ - أسماء وردت لها ترجمة بالكتاب.

٢ - أسماء لم ترد لها أي ترجمة أو تعريف.

وقد يذكر اسم المحدّثة (سواء كانت من القسم الأول أو الثاني) أكثر من مرة كلما جاءت ترجمة لأحد تلاميذها.

وقد حصرت عدد المحدّثات - من الصنفين في الدرر الكامنة - فوجدته يبلغ (١٧١)

مائة واحـدى وسبعين محدّثة،[1] مما يدل على أن الكتاب المذكور يعـد أكثر المصادر شمولاً واستيعاباً لتراجم المحدّثات وما مارسه بعضهـن من نشاط هائل في القرنين السابع والثامن الهجريين في تعليم أعلام العصر، والمبرّزين فيه في كل علم وفن.

وربما كان تميّز كتاب الدرر الكامنة عن غيره من الكتب في هذا الباب راجعاً إلى المصادر التي استقى منها المؤلف مادة كتابه، ومن ثم فإن علينا أن نتوقف قليلاً أمام تلك المصادر.

* * *

(١) هذا بخلاف تراجم المحدّثات التي أوردها في كتابه «معجم مريم»، ولم يورد بعضها في الدرر الكامنة.

* في مصـادر الـدرر الكامنـة :

صدّر ابـن حجر كتابـه «الدرر الكامنـة» بمقدّمة ضمنّهـا المصادر التي اعتمـد عليها في استقاء معلوماتـه عن أعلام القرن الثامن مـن الرجال والنساء . وذكر فيها أحـد عشر كتابا من الكتب ، ألّف بعضها بعض العلماء الذين عاشـوا في ذلك القرن الثامن ، منهم عدد من شيوخ شيوخه وبعض معاصريهم ، وألفّ البعضَ الآخر عدد من شيوخه وبعض أصحابه الذين عاصروه في القرن التاسع .

يقول في مقدمة «الدرر الكامنة» عن مصادره : « وقد استمددت هذا الكتاب من : -

- أعيان العصر : لأبي الصفاء الصفدي .[١]
- مجاني العصر : لشيخ شيوخنا أبي حيان .[٢]
- ذهبية القصر : لشهاب الدين بن فضل الله (العمري) .[٣]
- تاريخ مصر : لشيخ شيوخنا قطب الدين الحلبي .[٤]
- ذيل سير النبلاء : للحافظ شمس الدين الذهبي .[٥]
- ذيل ذيل المرآة : للحافظ علم الدين البرزالي .[٦]
- الوفيـــات : للعلامة تقي الدين ابن رافع .[٧]
- والذيل عليه : للعلامة شهاب الدين ابن حجي .[٨]
- ومما جمعه صاحبنا تقي الدين المقريزى[٩] في أخبار الدولة المصرية وخططها .
- ومعاجم كثيرة من شيوخنا .

---

(١) خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤) .
(٢) أبو حيان : محمد بن يوسف ابن حيان الغرناطي النحوى (ت ٧٤٥) .
(٣) شهاب الدين ابن فضل العمرى (ت ٧٤٩) .
(٤) قطب الدين أبو محمد عبدالكريم الحلبي (ت ٧٣٥) .
(٥) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨) .
(٦) القاسم بن محمد البرزالي (ت ٧٣٩) .
(٧) تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع السلامي (ت ٧٧٤) .
(٨) أحمد بن حجي بن موسى السعدي (ت ٨١٦) .
(٩) أحمـد بـن علي المقـريزى (ت ٨٤٥) .

- والوفيات للحافظ شمس الدين أبو الحسين بن أيبك الدمياطي. [(١)]
- والذيل عليه لشيخنا الحافظ أبي الفضل ابن الحسين العراقي.» [(٢)]. انتهى.

ومن الواضح أن ابن حجر قد جمع أهم المصادر التي تعينه على تأليف كتاب في تراجم أعيان القرن الثامن، وحرص على أن يكون مؤلفو هذه المصادر من الشهود العدول الذين عاصروا أصحاب هذه التراجم، أو ممن لحق بهم من ثقات المؤلفين والمصنّفين.

ولا شك أنه قد أفاد بتلك الكتب فائدة كبرى في الترجمة للرجال، أما في تراجم النساء فلم يصرح باستخدام بعض هذه الكتب إلا في مواطن محدودة للغاية[(٣)]. على أن أكثر ما رجع إليه من تلك الكتب لجمع أخبار النساء إنما يتمثل في كتابين اثنين هما: كتاب الوفيات للعلامة تقي الدين ابن رافع،[(٤)] وذيل سير النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبي.[(٥)]

ومن ثم نلاحظ أن ابن حجر العسقلاني لم يقتصر على استخدام كتب التاريخ والوفيات كمصادر لتراجم النساء في الدرر الكامنة، وإنما اعتمد على مصادر أخرى غير تلك الكتب، فما هي ياتُرى تلك المصادر؟.

إذا تأملنا في العبارة التي نقلناها توّاً من مقدمة الكتاب نجد مؤلّفنا قد أشار إشارة عارضة إلى نوع آخر من المصادر التي اعتمد عليها، بخلاف الكتب التي ذكرها، فقال: «... **ومعاجم كثيرة من شيوخنا**». فلقد لاحظ ابن حجر أن اعتماده على الكتب وحدها لن يحقق له استيفاء سير الأعلام في القرن الثامن على الوجه الذي يبتغيه من الدقة والشمول والإتقان، فعمد إلى طائفة أخرى من الكتب لا تخطيء أهميتَها عينُ الناقد البصير، وهي المعاجم والمشيخات التي خرّجها عدد من كبار الحفّاظ لأنفسهم (أو خرّجوها لبعض مشايخهم) وأثبتوا فيها تراجم من تلقوا عليهم علم الحديث من الرجال والنساء.

---

(١) أبو الحسين أحمد بن أيبك الدمياطي (ت ٧٤٩).
(٢) الحافظ زين الدين عبدالرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦).
(٣) استخدم ابن حجر في تراجم النساء من الكتب - حسب ما صرّح به هو - مايلي: أعيان العصر للصفدي ٤: ٤٠٦ (موضع واحد)، تاريخ مصر للقطب الحلبي ٣: ٢٢٧ (موضع واحد)، ذيل ذيل المرآة للبرزالي ٢: ١٢٣، ٣: ٢٢٤، ٢٢٥ (ثلاثة مواضع)، ذيل الوفيات لأبي الفضل بن الحسين العراقي ٢: ١٢٧، ١٢٨، ٣: ٢٢٠ (ثلاثة مواضع).
(٤) راجع الدرر الكامنة: ١: ٣٦١، ٢: ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ٣: ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٨، ٤: ٣٨٦ (ثمانية مواضع)، وقد أفاد ابن حجر في عدد من هذه المواضع الثمانية بكتاب آخر هو «معجم ابن رافع».
(٥) انظر الدرر الكامنة ٢: ١٢٢، ١٢٩، ٣: ٢٢١، ٢٢٥، ٤: ٣٩٠، وأشار ابن حجر إلى أنه أفاد في بعض هذه المواضع بمعجم الذهبي، فقال عن بعض من أوردهن في تراجمه من النساء: «وذكرها الذهبي في معجمه». (انظر مثلاً: ٣: ٢٢١، ٢٢٥).

والحق أن هذه المعاجم تبلغ أعلى درجات الصحة من الناحية العلمية، لأن مؤلفيها إنما يكتبون سير أناس اتصلوا بهم اتصالاً مباشراً بالسماع (أو اتصالاً قريباً بالإجازة)، وتلقوا العلم على أيديهم، وخالطوهم وتعرفوا على أخبارهم وأحوالهم ومناقبهم عن كثب.

ولا شك أن هذه «المعاجم الكثيرة» كانت أكثر عناية بإثبات تراجم المحدّثات من الكتب التي تتناول شتى مناشط الحياة، ولا يمثل الحديث فيها إلا جانباً واحداً من جوانب متعددة، وبالتالي لا يجد مؤلفوها فسحة تتيح لهم العناية بأخبار المحدّثات، اللهم إلا من اشتهر منهن شهرة واسعة، وأصبح الطّلاب يشدون إليها الرحال من شتى البلاد والأقطار، لكن المعاجم - بسبب انحصار موضوعها في تراجم أهل الحديث - تفسح لمؤلفيها المجال لذكر ما تضيق الكتب العامة عن ذكره، فضلاً عن حرص أصحاب المعاجم على أن تستوعب معاجمهم تراجم كل من تلقوا العلم عنهم من الرجال والنساء وتستوفي أخبارهم.

وقد أفاد ابن حجر بهذه المعاجم فائدة كبرى في تأليف كتابه «الدرر الكامنة»، واستقى منها الكثير من الأخبار التي ضمّنها تراجم الرجال والنساء على السواء، لكن اعتماده عليها في تراجم النساء كان أظهر وأوضح، ولذلك كثر ذكر هذه المعاجم كمصادر لتراجم المحدّثات بصفة خاصة. وفيما يلي بيان بهذه المعاجم مرّتبة حسب عدد ورودها في تلك التراجم.

١ - معجم حامد بن ظهيرة = أحد عشر موضعاً.[١]

٢ - معجم ابن رافع = عشرة مواضع.[٢]

٣ - معجم الذهبي = أربعة مواضع.[٣]

٤ - مشيخة العز ابن جماعة تأليف أبي جعفر ابن الكويك = ثلاثة مواضع.[٤]

---

(١) ١: ٣٦٠، ٤١٢، ٢: ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٨٩، ٢٣٦، ٣: ٢٢٥، ٢٦٨، ٤: ٣٨٥، ٤٠٤.

(٢) ١: ٣٦١، ٢: ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ٣: ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٨، ٤: ٣٨٦.

(٣) ٣: ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٤: ٣٩٧.

(٤) ٣: ٢٢٤، ٢٢٥، ٤: ٣٨٥.

٥ - معجـم الــبرزالي = ثلاثة مواضع . [١]

٦ - مشيخة وجيهة الصعيدية الإسكندرانية ، لتقي الدين ابن رافع = موضع واحد . [٢]

٧ - مشيخة زاهدة بنت محمد بن عبدالله الطاهرى ، للمقاتلى = موضع واحد . [٣]

ولم يكن يقتصر ابن حجر على مـا ورد في معجم واحد من تلك المعاجـم في جمع مادّته ، بل كان يجمع بين أكثر مـن معجم ويقارن بين ما كتبه مؤلفوها ، لكـي يثبت أصح الأخبار وأوثقها في تراجمه ، فهو يقول مثلاً في ترجمة فاطمـة بنت أبي بكر (بنت الزين) : «سمع منها البرْزَالي ، والذهبي ، وابن رافع ، وحدّثوا عنها في معاجيمهم»[٤] ، ويقول في ترجمة نفيسة بنـت ابراهيـم بـن سالم : « ... وسمـع منهـا البرْزالي والـذّهبي وابـن رافـع ، وذكروهـا في معاجيمهـم ، وحدّثـت كثيراً إلى أن ماتت في ١٥ جمادى الأولى سنـة ٧٤٩هـ ، أرّخهـا ابن رافـع»[٥] وهذا يعني أنه - وإن كان قد اعتمد على المعاجـم الثلاثة لتلاميذها المذكورين - فضّل أن يستقي تاريخ وفاتها من كتاب الوَفَيات لابن رافع .

وإلى جانب اعتماده على الكتب التي ذكر عناوينها في مقـدمة كتابه ، والمعاجم التي أشار إليهـا في تراجمه ، استقـى ابـن حجـر بعض أخبـار النسـاء مشافهـة مـن بعـض من تتلمـذ عليهن ،[٦] كما اعتمد على كتب أخرى لم يرد لها ذكر في مقدمة الدرر الكامنة ، ككتاب : من كان حياً من الشيوخ بحلب لمحمد بن يحيى بن سعد ،[٧] وهو من الكتب الضائعة التي لم نعثر لها على ذكر أو أثر .

كل ذلك يدلنا على أن ابن حجر لم يدع طريقاً يعينه على جمع أخبار المحدّثات من مصادر أصيلة إلا وسلكه .

---

(١) ٣ : ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(٢) ٤ : ٤٠٦ ، وواضح أن ابن حجر قد أفاد من هذه المشيخة ، لأن ابنَ رافع لم يترجم لوجيهة في كتابه الوفيات .

(٣) انظــر ٢ : ١١٢ - ١١٣ .

(٤) ٣ : ٢٢٣ .

(٥) ٤ : ٣٩٧ .

(٦) انظر قوله عن إحدي المحدّثات : «حدثنا عنها شيخنا ابن برهان الدين الشامي» . (٣ : ٢٢٧) .

(٧) انظر ٢ : ١٢٩ ، وراجع ترجمة مؤلف الكتاب في الدرر .

* مقارنة بين ابن حجر وبعض مصادره :

لن تتاح لنا هذه المقارنة إلا بصورة جزئية، لأننا لم نعثر إلا على كتاب واحد فحسب من تلك التي ذكرها ابن حجر في مقدمة كتابه واستخدمها في تدوين أخبار المحدّثات، ونعني به كتاب «الوَفَيَات» للعلامة تقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السّلامي.[1] أما بقية الكتب والمعاجم التي اتخذ منها مصادر لتراجم النساء فقد فقدت أو ظلّت مخطوطة في بطون المكتبات تنتظر من يخرجها على الناس.

وكان ابن رافع قد جعل كتابه «الوفيات» ذيلاً لتاريخ البرزالي، فاشتملت وفيات ابن رافع على تراجم من توفي من الأعلام في الفترة من سنة ٧٣٧هـ إلى ٧٧٤هـ، وهي فترة من الفترات التي عني ابن حجر بتراجم وفياتها لوقوعها في أواسط القرن الثامن الذي ترجم لأعيانه في كتابه «الدرر الكامنة».

ولقد أفاد ابن حجر بوفيات ابن رافع فائدة كبيرة في تراجم الرجال والنساء «فقد اقتبس منه في ١٥١ موضعاً، وصرّح بنقله عنه، كما اقتبس منه في ٦٠ موضعاً غيرها لم يصرّح فيها بنقله عنه».[2]

وقد استوعب ابن حجر تراجم المحدّثات التي ترجم لهن تقي الدين ابن رافع، بل وزاد عليه بعض التراجم.

وقد لاحظت أن ابن حجر أغفل ذكر سبع من النساء اللاتي وردت ترجمتهن في كتاب الوفيات،[3] وحاولت معرفة سبب هذا الإغفال فوجدت أن هناك سمة مشتركة تجمع بين خمس منهن: وهي أن أسماءهن لم تذكر إلا في وفيات ابن رافع وحدها، وأن تراجمهن لم ترد في المصادر التي اعتمدها ابن حجر وجعلها أمامه ليستمد منها مادة كتابه. أما الشيختان الباقيتان فقد ذُكرت كل منهما - على حدة - في كتاب لم يتخذه ابن حجر مصدراً من مصادر

(١) طبع الكتاب مؤخرا (سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) في بيروت بتحقيق صالح مهدي عباس.

(٢) صالح مهدى عباس، مقدمة كتاب الوفيات لتقي الدين بن رافع، ص ٩ وما بعدها.

(٣) انظر، الوفيات، ١ : ١٨٥ - ١٨٦، ١٩٧، ٣٠٠، ٣٤٥، ٣٤٦، ٢ : ٢٥٦، ٢٥٧.

كتابه .[١]

وربما كان هذا يعني أن مؤلف الدرر الكامنة كان يتبع منهجاً صارماً في إثبات أسماء المحدّثات من غير المشهورات، إذ اشترط أن ترد تراجمهن في أكثر من مصدر، فإن لم ترد إلا في مصدر واحد ضرب صفحاً عن الإتيان بترجمة لهن في كتابه حتى ولو كان مؤلف ذلك المصدر الوحيد يحظى بثقته الكاملة .[٢]

ويؤكد هذا الاحتمال ما نلاحظه في التراجم التي اعتمد ابن حجر فيها على كتاب «الوفيات» لابن رافع كمصدر رئيسي، فلقد أضاف إلى هذه التراجم إضافات لا توجد في الوفيات، وفيما يلي بعض المقارنات بينهما :

(١) راجع : وفيات ابن رافع، هوامش ١ : ١٩٧ في ترجمة فاطمة بنت زين العابدين عبدالرحمن، وقد أشار محقق الكتاب إلى أن ترجمتها وردت في كتاب حوادث الزمان وأبنائه لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبدالعزيز الجزرى (ت ٧٣٩) نسخة مكتبة المجمع العلمي العراقي (رقم ٥٦٥)، وانظر أيضاً، هوامش ١ : ٢٠٩ في ترجمة ضَيّفة ابنة المعدل شمس الدين محمد بن عبدالواحد بن اسماعيل، وقد أشار المحقق إلى أن ترجمتها وردت في كتاب «ذيل العبر» لولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبدالرحمن العراقي (ت ٨٢٦)، نسخة مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم (٥٨٣).

(٢) وصف ابن حجر الشيخ تقي الدين بن رافع في صدر كتابه بـ«العلاّمة».

المقارنـــــات

الــدرر الكامنـــة	الوفيــــــات
(أ) «فاطمة بنـت محمد بن محمد بـن جبريل ابن أبي الفوارس ابن أحمد بن علي بـن خالد أم الحسـن الدربنـدي أبـوهـا، تدعـي ست العجـم، سمعـت مـن النجيـب والعـز الحرانيين، ومـن المعين الـدمشقـي وابـن عزون وابـن علاق، وعنـدها عنـه مشيخة تخريـج ابـن الجبيلي، والمحنـة والـرد على الأهـواء لمحمـد بـن جـريـر وغير ذلـك، وسمعـت على أبي المحاســن العمـوري، وأجـاز لها الكـرماني وآخـرون، وكـانـت مكثرة سماعاً وشيـوخاً، ذكرها ابـن رافع، وأرّخ وفاتها في تاسع عشر من شهر رمضان سنة ٧٣٧، ولها ست وسبعون سنة». [١]	«وفي ليلـة تاسـع عشر من شهـر رمضان منهـا (٧٣٢) توفيت أم الحسن فاطمة وتدعى ست العجم، ابنة المحـدّث أبي الوليد محمد بـن محمد بن جبريـل بـن أحمد بـن على بـن خـالـد الـدربنـدى بالقاهـرة، ودفنت من الغد بالقرافـة. سمعت من المعين أحمد بـن على الـدمشقـي، وإسماعيـل ابـن عزون، وعبدالله بن علاق، والنجيب عبداللطيف والعزيز ابني عبدالمنعم الحراني، وأبي بكر محمد بن أحمد القسطلاني وجماعـة، وحدّثت، ومولـدها في مستهل جمادي الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة، وكانت محبة للحديث وأهله، سهلة في التحديث، رضية الخلق، وافتقرت في آخر عمرها». [٢]
(ب) «زينـب بنت محمـد بن إبـراهيم بـن غنائم المعروف والدها بابن المهندس أسمعت على التقي سليمان وأرخ ابـن رافـع وفـاتها في المحرم سنة ٦٧٢». [٣]	«وفي المحرم فيهـا (٧٦٢هـ تـوفيت زينـب ابنة المحدّث شمس الـدين محمد بن إبراهيـم بن غنائم ابن المهندس». [٤]

(١) الــدرر : ٣ : ٢٢٧ - ٢٢٨.
(٢) وفــيات : ١ : ١٧٥ - ١٧٦.
(٣) الــدرر : ٢ : ١٢١.
(٤) وفيــات : ٢ : ٢٣٦.

ولعل هذه المقارنة تبين لنا أن ابن حجر بدا أكثر حرصاً على إثبات مسموعات الشيخات على شيوخهن، مما جعله ينظر في مصادر أخرى ليستمد منها هذا الجانب الذي لم يكن يُعنى به صاحب الوفيات كثيراً، غير أن ابن حجر لم يشأ أن يثبت بعض الأخبار التي أوردها صاحب كتاب الوفيات عن مناقب المحدّثة الأولي وأحوالها واكتفى بالإشارة إلى مصدره وهو كتاب الوفيات نفسه.

وإذا كان ابن حجر قد استوعب ما في وفيات ابن رافع من تراجم النساء اللاتي وقعت وفاتهن بين سنتي ٧٣٧ و ٧٧٤، عدا من استبعدهن لشروط منهجيّة عامة وضعها والتزم بها في تصنيف كتابه، فقد أثبت تراجم لمحدّثات توفين في الفترة نفسها، ولم يرد لهن ذكر في كتاب الوفيات.[١]

نخلص من هذه المقارنة إلى أن كتاب «الدرر الكامنة» يعد أكثر دقة، وأوفى تحرياً في إثبات أسماء المحدّثات وإيراد تراجمهن، كما يعد أكثر شمولاً واستيعاباً من مصادره المُفْرَدة نفسها.

غير أن كتاب الوفيات يشتمل - أحياناً - على بعض التفاصيل التي لا ترد في الدرر الكامنة، من ذلك مثلاً أن ابن رافع يولي اهتماماً خاصاً لتاريخ وفاة المحدّثات، وهذا أمر طبيعي، لأنه إنما يرتب أبواب كتابه وفصوله وفقاً لتاريخ الوفاة، فالكتاب سجلّ للوفيات، لكن ابن حجر لا يلقي - أحياناً - بالا إلى هذه النقطة.[٢]

كما يعنى ابن رافع بتعيين موطن المحدّثة، وهو أمر لا يحظى كثيراً بعناية ابن حجر، الأمر الذي يجعل من الضروري على الباحث أن يستعين بكتاب الوفيات لإكمال ما نقص من كتاب الدرر في هذا الصدد.[٣]

---

(١) انظر مثلاً: أمامة بنت عبدالسلام (ت ٧٤٤)، الدرر ١ : ٤١٢، فاطمة بنت محمد بن محمد بن اسماعيل، ٣: ٢٢٧ (ت ٧٤٧). مؤنسة بنت صبيح بن عبدالله، ٤ : ٣٨٥ (ت ٧٤٩). نفيسة بنت إبراهيم بن سالم بن سعيد (ت ٧٤٩) ٤ : ٣٩٧، وهي شيخة ابن رافع، لكنه لم يورد ترجمتها في الوفيات وإنما ترجمها في معجمه كما أشار ابن حجر.

(٢) راجع الدرر مثلاً، ٢ : ١١٠، ١١٨، ١١٩، ٢٣٧، ٣ : ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٨، ٤ : ٣٨٥، ٣٩٧.

(٣) قارن مثلا: وفيات ابن رافع، ٢ : ٢٠٤، ٢٩٦، والدرر الكامنة ٣: ٢٢٠، ٢٢١.

ويحرص ابن رافع أيضاً على العناية بجزئية يغفلها صاحب الدرر الكامنة أحياناً، وهي بيان ما إذا كانت المترجَم لها قد اشتغلت بالتّحديث أم لا، فقد كان ينص في تراجم المحدّثات بقوله «حدّثت»، وقد أغفل ابن حجر مثل هذه الإشارة في ثلاث من تراجم النساء التي اشترك مع ابن رافع في ذكرهنّ، فلم يشر إلى أنهن قد حدّثن.(١) وهذا نقص آخر يمكن استيفاؤه من كتاب «الوفيات»

كل هذا يدلنا على ما لكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ شهاب الدين أحمد بن على الشهير بابن حجر العسقلاني من قيمة كبرى في دراسة ظاهرة كثرة المحدثات في العصر المملوكي وإسهامهن في الحياة العلمية والأدبية لذلك العصر، فهو الكتاب الذي يتعين على الدارس أن يجعله أمامه ويتخذ منه مصدراً رئيساً، لما يّتصف به من دقّة وشمول.

ولا يعني هذا - بحال - أن نطرح المصادر الأخرى جانباً، بل لابد من الرجوع إليها والاعتماد عليها، لا سيما في استيفاء ما بها من تفاصيل لم ترد بكتاب «الدرر الكامنة».

* * *

(١) انظر تراجم : آمنة ابنة الموفق عبدالرحمن (الدرر : ١ : ٤١٣، الوفيات : ١ : ٤١١) وفاطمة ابنة نصر الله (الدرر ٣: ٢٢٨، الوفيات ٢ : ١١٩)، وقوام ابنة عبدالله (الدرر ٣: ٢٥٧، الوفيات ١ : ٤١٠ - ٤٤١) وقد شكّ ابن رافع في أن تكون وسناء بنت عبدالرحمن قد حدّثت ولكن ابن حجر أثبت تحديثها، (الوفيات ٢ : ٣٧٢ - ٣٧٣، الدرر ٤ : ٤٠٧).